★★★★★★★★★

هكذا تكلّم الحلاّج

أحمد عنتر مصطفى

هابطاً كان في ليلةٍ كالشعاعِ السنْي
ساحراً بعصاه..، بقلبٍ نبيْ..
.. ها هو الآن يمضي.. ويمضي كحلمٍ عميقِ الصدى.. عبقريْ
..
نقطةٌ من دمي آخر السطرِ..
يبدأ موتٌ جديدْ
فاصلةٌ من عظامي مقوسةٌ،
تنزفُ الذكرياتُ، تجيءُ عصافيرُ وجدٍ جريحٍ
تُنقِّرُ في القلبِ يلتاعُ.. يدمى.. يميدْ
للصمتِ أن يترهلَ.. يسجو..،
وللحزنِ أن ينصبَ الآن خيمتَه في سفوح القلوبِ،
وللشعرِ أن يتلقى العزاءَ.. ويمتد (بحرُ الحدادْ)
هي الريحُ تدعو الشراعَ؛ ويرتحلُ السندبادْ
صوتُه يترامى نحيلاً.. نحيلا..
وعبر الموات البليدْ:
« ..
إنني بعضُ هذي المدينهْ
كلُّ من ضاجعوا حزنَها أنجبوني
كلُّ من أشرعوا السيفَ في وجهها حاربوني..
كان سوطُ المماليكُ خلفي.. أمامي، يجيئون أو يذهبونَ؛
وكنتُ أقاسمها الوجدَ والحبَّ.. تنفثُ فيَّ اللهيبْ

ما من رغيفٍ تقاسمه البسطاءُ..؛ تفتّتَ بين أكُفِ صغار
اليتامى إلا وعمَّدتُهُ في عيوني..
إنني بعضُ هذي المدينهْ
ليلُها التاجُ كلّلني بالمشيبْ
كنتُ أرقبُ فيها النجومَ، تتّبعتُ خيطاً خفياً تَواصلَ
ما بينها..؛ نيلها كان من عرقِ الفقراءِ أراه..؛
غنّيته زمنا.. واستثار لحوني..
والترابُ الذي ذقته قبل طعم الحليبْ
كان آخرَ ما ضمّني، حيث (زهرانُ) عانقني
في صلاةِ السكونِ
إنني بعضُ هذي المدينهْ
للسماءِ بها هيكلُ الجوعِ، وللشُرَطيِّ انتصابُ
المهانةِ والشوكِ، للزمنِ الفظِّ سحنةُ لصٍ؛
وللشعرِ صرخةُ ورده
روَّضتُ فيها الرعودَ زمانا..؛
وذرَّتنيَ الريحُ فيها غباراً.. زماناً..؛
وكنت أراها بساطاً من الوحلِ يمتدُ..؛
ساقي تسوخُ، وأخرجُ منها(★).. أعودُ إليها..؛
وقلبي مشوقٌ يكاتمُ وجْدَه..
والسؤال يحاصرني.. والعلاقةُ بين المريد وبين الوطن
ليس يسبرُ أغوارها المخبرون؛ ولا الحرسُ المستريبْ
رغم معرفتي بالمدينهْ
باختلاجاتِ نبضٍ تنهدها في فمي
بانبثاقاتِ أشجارِها من دمي
كلُّ أغصانها تلتوي.. تتقاطعُ.. تأخذُ شكلَ الصليب
بالنداءِ على شفةِ الباعة الجائلينَ؛
دراويشِها البلهاءِ..؛
المقاهي التي تحضنُ الغرباءَ حوائطُها تتساندُ؛
غامت عليها المرايا..
باسم نافذتين ترقرق بينهما الحبُ في ميعةِ العمرِ أشدو..؛
وعن حُلُمِ الفقراءِ ونبع الطفولةِ غنّيتُ..؛
كانت خلايا الجسدْ..
خارطةً للقناطر والنيلِ؛ هذي حدودي أنا..؛
والمدينةُ منفيّةٌ داخلي.. كان يسألني:
أين منك الوطنْ؟
رغم معرفتي بالشجونِ الدفينهْ
بالضباعِ التي تنهشُ الشهداءْ
كنت أرقبُ.. أضحكُ.. أصغي لشيخِ المعرّه:
وأعجبُ مني: كيف أُخدعُ دائماً
على أنني من أعرفِ الناسِ بالناس..»

★ ★ ★

[.. لن أصرخَ:
نحن قتلناه بالكلماتْ..
لكني أنصتُ في إطراق
للصوتِ الجامحِ عن جدّي يرحمه الله:
(يأتي زمنٌ يأكلُ فيه القطُّ النابحُ ليثاً أضناه الإرهاقْ
يشحذُ فيه الفأرُ سيوفَ الجرأةِ؛
تلبسُ فيه الغربانُ ثيابَ العرسِ الناصعِ؛
يرقصُ فيه الفيلُ على خيط الحكمهْ..
ويغنّي الضفدعُ حتى ترقصَ كالبندولِ رؤوس القومِ
على الأعناقْ..)..]
هذه الأرضُ ليست لنا..
والدموعُ التي سوف نذرفها في الحنين إليها
دمُ الشعراءِ؛
وأولُ ما صادفته القوابلُ منا..؛
ومنتصفُ الموتِ قهراً؛..
وآخرُ ما أنجب الحزنُ بعد مضاجعةِ الروح فينا..
وذروةُ ما ينضجُ النبعُ من كبرياءْ..
هذه الأرضُ ليست لنا.. والعزاءْ
دائماً نحن مغتربون عليها؛ تدهسُ خيلُ الشجونِ.
حناجرَنا، والمماليكُ تأتي وتذهبُ..؛
نحن الحقيقةُ.. نعقدُ هذا القران المتوجَ
بين السهولِ وبين الخيولِ.. يكونُ
انطلاقُ الفرحْ..
والمماليك تأتي وتذهبُ..؛
خنجرُهم مغمدٌ في عيون التفردِ والخلقِ والحلمِ؛
لا نستطيع لهم أنْ نُحيلَ الرمادَ زهوراً..
زقزقاتِ العصافيرِ تصفيقَ زهوٍ
به يرفلُ الخطباءْ
نحن لن نرثَ الأرضَ.. أو ما عليها..
إنها أُتخمتْ بالدماء
والمماليكُ تأتي وتذهبُ..؛
تتبلعُ الذكرياتِ؛ وتمضغُ أوراقنا؛ ثم تسألُ:
ماذا نكونُ؟ الخرائط تمتدُّ أو تتقلصُ؛
والأرضُ لما تزلْ مهرةً يمتطيها لصوصُ الحقيقةِ؛
تجارُ أزمنةِ العهرِ؛ بعضُ سماسرةِ الدمِ؛
يبدو كأن سكوناً مريعاً يُخيِّمُ..؛
موتاً كئيباً تسلَّلَ..؛
فانتبهوا أيها الشعراءْ..
والنجاءَ..
النجاءَ
النجاءْ..

القاهرة

★ أبيات على محمود طه التي كان يعجب به الشاعر الفقيد.
★ إشارة إلى قصيدتي (الخروج) و(أغنية للقاهرة) ديوان «أحلام الفارس القديم».